

كيفية اختيار الولاية في المشرق الإسلامي

في عصر بني أمية ٤١ - ١٠١ هـ

التمهيد:

يقع إقليم خراسان^(١) في أقصى الشمال الشرقي من الدولة الإسلامية، وهو يتصل بأواسط آسيا وبلاد الترك والصين، وتمر به أهم الطرق التجارية العالمية مع الصين وبلاد الروس.

وقد تمكن المسلمون من فتح خراسان في بواكير عهد الخلافة الراشدة في زمن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - حيث استطاع الأخنف بن قيس التميمي^(٢) من فتح هذه البلاد في عام ثمانية عشر هجرية؛ إلا أن خراسان لم تستقر تماماً تحت الفتح

الدكتور :
محمد بن
عبدالله
الشويعر*

* بكالوريوس في
التاريخ من كلية
التربية جامعة
الملك سعود عام
١٤٠٤هـ.

- ماجستير في
التاريخ قسم
التاريخ - كلية
الأدب بالجامعة
نفسها عام
١٤٢٣هـ.

- دكتوراة في
التخصص نفسه
والجامعة نفسها
عام ١٤٣٠هـ .

- يعمل الآن مديراً
عاماً لإدارة
الدراسات والبحوث
والنشر في مركز
الملك عبدالعزيز
للحوار الوطني.

(١) خراسان : بلاد واسعة، وتشتمل على أمهات من البلاد منها: نيسابور، وهراة، ومرو، وهي كانت قصبته. ياقوت الحموي. معجم البلدان: تحقيق فريد عبدالعزيز الجندي - بيروت : دار الكتب العلمية، د - ت، ج٢، ص ٤٠١.

(٢) الأخنف بن قيس بن معاوية بن حصين التميمي السعدي: أمه حبة بنت عمرو ابن قرط بن ثعلبة الباهلية. أدرك النبي ﷺ، ولم يجتمع به. افتتح مرو الروذ. توفي زمن ولاية مصعب بن الزبير في البصرة سنة ٦٧هـ، ومشى مصعب في جنازته وقال مصعب يوم موته: ذهب اليوم الحزم والرأي. أحمد ابن علي بن حجر العسقلاني. الإصابة في تمييز الصحابة. اعتنى به حسان عبدالمنان - عمان، بيت الأفكار الدولية، د - ت، ص ٢٥.

الطبعة

جمادى الآخرة ١٤٣٠ هـ
يونيو ٢٠٠٩ م

السنة الثانية عشرة
العدد السادس والأربعون

الإسلامي مما ترتب عليه إعادة فتحها مرات عدة؛ فلما قتل عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - تمرد أهل خراسان، فاستعاد فتحها المسلمون بقيادة عبدالله بن عامر بن كريز القرشي^(١) بمعاونة الأحنف بن قيس سنة إحدى وثلاثين هجرية^(٢).

أدرك المسلمون أهمية إقليم خراسان منذ وقت مبكر، فاهتموا به من الناحية الإدارية والعسكرية، فقد امتاز هذا الإقليم باتساع أراضيه وكثرة خراجه، إضافة إلى أن موقعه الجغرافي جعل منه ثغراً من ثغور المسلمين وجبهة شرقية لدولتهم، وكان لابد من توطيد دعائم الحكم فيه، إلا أن هذا الإقليم تميز أيضاً بكثرة الثورات فيه والتمرد على الحكم المركزي، مما جعل الولاة يولون عناية خاصة بمن يولّونهم على هذا الإقليم؛ ولهذا نرى أن جل من تولى المسؤولية في إقليم خراسان كان يتصف بصفات معينة وفقاً للزمن والظروف السياسية التي كانت سائدة في الإقليم؛ فأحياناً يتطلب الأمر أن يكون الوالي من ذوي العبقرية العسكرية والقدرة على قيادة الجيوش وتوسيع الفتوحات؛ وأحياناً أخرى يتطلب الأمر أن يكون الوالي من ذوي القدرة الإدارية والحز. المطلوبين لضبط الحكم وتنظيم الأمور المالية والإدارية؛ وفي ظروف أخرى يتم اختيار الوالي طبقاً لبعض التوازنات القبلية حتى يتم إخماد فتنة

(١) عبدالله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن حبيب القرشي: ابن خال عثمان بن عفان، رضي الله عنه؛ لأن أم عثمان هي أروى بنت كريز المذكور. ولد على عهد النبي ﷺ، كان عبدالله جواداً شجاعاً، ولاء عثمان بن عفان البصرة بعد أبي موسى الأشعري سنة ٢٩هـ، فافتتح خراسان كلها. مات بالمدينة سنة سبع أو ثمان وخمسين للهجرة. ابن حجر. الإصابة، ص ٧٩٤.

(٢) أحمد بن يحيى البلاذري. فتوح البلدان؛ مراجعة رضوان محمد رضوان - بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٢هـ/١٩٩١م، ص ٣٨٥ - ٣٩٧، محمد بن جرير الطبري. تاريخ الرسل والملوك، ومن كان في زمن كل منهم؛ تقديم ومراجعة صدقي جميل العطار - ط ١ - بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ج ٥، ص ١٢٣ - ١٢٤.

أو القضاء على تمرد، أو إرضاء لرغبات بعض المجموعات المسيطرة في الإقليم، وقد يختار الوالي لصالحه وتقواه وعمق معرفته بالأمور الدينية.

وقد تولى إمارة خراسان أنماط من الولاة امتاز كثير منهم بهذه الصفات؛ فقد امتاز المهلب بن أبي صفرة^(١) بالعسكرية العسكرية والكفاءة الحربية الفائقة وخبرة واسعة في الحروب؛ أما الحكم بن عمرو الغفاري^(٢) - رضي الله عنه - فقد كان صحابياً اشتهر بالفضل والصلاح والرأي والإقدام، وولى يزيد بن عبد الملك عمر بن هبيرة على خراسان بعد عزل المهالبة استجابة لبعض التوازنات القبلية، حيث كان المهالبة من الأزدي، بينما تطلب الأمر تولية ابن هبيرة وهو قيسي، واستعان بنو أمية بالحجاج بن يوسف الثقفي المشهور بالقسوة والحزم والقدرة على إخماد التمرد والثورات.

أسس اختيار الولاة:

لاشك أن اختيار الولاة يخضع لأمر أخرى كثيرة، وما ذكرناه آنفاً لا يمثل إلا السمة الغالبة لعملية الاختيار؛ وبالنسبة لإقليم خراسان خاصة؛ فقد كان اختيار الوالي تدخل فيه عوامل عدة؛ ففي عهد بني أمية كان عنصر الولاء هو القاعدة الأولية لتولية الولاة، إضافة لعنصر القرابة، وهي أمور يبدو أنها مهمة لضمان السيطرة على الأمور؛ فقد ولى عبد الملك بن مروان الحجاج بن يوسف الثقفي على العراق بناء على ولائه المطلق للحكم الأموي، إضافة إلى حزمه وقوته؛ وقد عمد

(١) المهلب بن أبي صفرة الأزدي. ولد عام الفتح في عهد النبي ﷺ، كان أميراً خبيراً. توفي سنة ١٨٢هـ. ابن حجر. الإصابة، ص ١٣٠٠.

(٢) الحكم بن عمرو بن مجدع بن حذيم بن الحارث... الغفاري: روى عن النبي ﷺ، صحبه حتى مات، ثم نزل البصرة، وولاه زياد خراسان فمات بها سنة ٤٥هـ، وقبل سنة ٥٠هـ. ابن حجر. الإصابة، ص ٢٩٠.

الحجاج إلى اتباع نفس الأسس في تولية عماله على الأقاليم، خاصة إقليم خراسان الذي كان يتبع إدارياً للعراق؛ وهكذا نرى الحجاج يولي أخاه محمد بن يوسف على اليمن، وابن عمه الحكم بن أيوب على البصرة، ومحمد بن أبي القاسم على فارس والسند، وعروة بن المغيرة على همزان، ومطرف بن المغيرة على المدائن، وقتيبة بن مسلم على خراسان وسجستان.

ولم يكن العنصر القبلي بعيداً عن تولية ولاة العراق وعمال خراسان في فترة الحكم الأموي؛ فقد عمد بعض الخلفاء الأمويين إلى تفضيل قبيلة على أخرى فيما يختص بولاة خراسان؛ فقد كان عبد الملك بن مروان وابنه يزيد بن عبد الملك يميلان إلى تولية القبائل القيسية، وإعلاء شأنها مثل: تولية عمر بن هبيرة على العراق وخراسان، أما هشام بن عبد الملك فقد كان يميل إلى القبائل اليمانية؛ لذا نراه يعزل عمر بن هبيرة ويولي خالد بن عبدالله القسري؛ هذا ولا ننسى سيطرة الأزدي على أعمال خراسان في بداية العهد الأموي؛ حيث تولى المهلب بن أبي صفرة وأبناءؤه ولاية خراسان.

كذلك كان خلفاء بني أمية يحاولون حفظ التوازن السياسي بين القبائل في خراسان، فقد عزل الخليفة عبد الملك بن مروان بكير بن وشاح والي خراسان سنة ٧٤هـ، وكان سبب عزله التعصب الزائد لقبيلة تميم، وتدخل أهل خراسان بالكتابة إلى الخليفة قائلين: إن خراسان لا تصلح بعد الفتنة إلا على رجل من قريش لا يحسدونه ولا يتعصبون عليه، فولى أمية بن عبدالله بن خالد بن أسيد والياً على خراسان^(١).

ولا يمكن أيضاً إغفال عامل آخر من عوامل تولية الولاة، وهو عامل الصلاح والتقوى والدين؛ وكان من أكثر خلفاء بني أمية من اهتم بهذه الصفات في ولائه هو

(١) البلاذري. الفتوح، ص ٣٩٠؛ الطبري. تاريخ، ج ٧، ص ٢٠٠ - ٢٠١.

الخليفة عمر بن عبدالعزيز بن مروان الذي جعل من دولته دولة يركز الحكم فيها على شعائر الإسلام، وأبطل كثيراً من الأهواء التي كانت لدى الخلفاء الأمويين السابقين في تولية الولاة والعمال.

وقد استعمل زياد بن أبي سفيان والي بني أمية على العراق الحكم بن عمرو الغفاري عاملاً على خراسان؛ وقد ذكرت بعض المصادر التاريخية أن ذلك كان عن طريق الصدفة، إذ أمر زياد حاجبه بأن يدعو له (الحكم)، يريد بذلك الحكم بن أبي العاص الثقفي ليوليه خراسان؛ إلا أن الحاجب أدخل الحكم بن عمرو الغفاري؛ فقال له زياد: (ما أردت، ولكن الله عز وجل أرادك)^(١). لكن من الواضح أن الحكم بن عمرو الغفاري كانت له سجايا ومميزات قيادية وتقوى وصلاح، وكانت له صحبة مع رسول الله ﷺ؛ وهذه الحادثة تدل على أن هناك اتجاهاً لتولية أولي الصلاح والتقوى من عمال بني أمية على أقاليمهم وأمصارهم؛ وتذكر المصادر التاريخية أن الحكم بن عمرو الغفاري تم عزله من خراسان بعد ذلك بعد خلاف حول الخراج وتقسيم الغنائم، وتولية خليل بن عبدالله الحنفي^(٢).

نعود للقول بأن أهمية إقليم خراسان وبلاد ما وراء النهر لصدر الدولة الإسلامية في فترتي حكم الخلافة الراشدة، وفترة حكم بني أمية، تتبع من كون هذا الإقليم يمثل بعداً جغرافياً واقتصادياً وأمنياً مهماً للغاية؛ فقد اهتم الخلفاء من بني أمية في البداية بالفتوحات وتوسيع رقعة الدولة شرقاً وشمالاً، ثم اهتموا بعد ذلك بإخضاع السكان وتوطيد دعائم الحكم، كما اهتموا في فترة لاحقة بتوازنات الوجود القبلي العربي في هذا الإقليم، ثم اهتموا أيضاً بكبت الثورات والقضاء على التمرد

(١) الطبري . تاريخ، ج٦، ص ١٠٩.

(٢) الطبري . تاريخ، ج٦، ص ١٠٩.

و لضمان الولاء المطلق لهم، خاصة من قبل الولاية والعمال؛ وسوف نستعرض بشيء من التفصيل في هذا البحث الأوضاع العامة في خراسان، ووصف لهذا الإقليم المهم، ثم نحاول تبين الأسس التي اعتمد عليها خلفاء بني أمية في تولية ولايتهم وعمالهم على إقليم خراسان.

الأوضاع العامة في خراسان:

أولاً: جغرافية خراسان:

يقع إقليم خراسان في القسم الشمالي الشرقي من الدولة الإسلامية؛ وتتألف خراسان في اللغة الفارسية من كلمتين هما: كلمة (خر)، وقيل إنها اسم للشمس في اللغة الفارسية الدرية، و (اسان) وتعني أصل الشيء ومكانه، وقيل معناه كل سهل؛ لأن معنى (خر) كل، و(اسان) سهل^(١).

وخراسان في مدلولها الواسع تضم كل بلاد ما وراء النهر التي في الشمال الشرقي ما عدا سجستان^(٢) ومعها قوهستان^(٣) في الجنوب؛ وكانت حدودها الخارجية صحراء الصين والباير من ناحية آسيا الوسطى، وجبال هند كوش من ناحية الهند، وقيل إنها تطلق على جميع الأقاليم الإسلامية في شرق المفازة الكبرى حتى جبال الهند.

(١) ياقوت الحموي. معجم البلدان، ج٢، ص٤٠١.

(٢) سجستان: هي ناحية كبيرة وولاية واسعة، بينها وبين هراة ثمانون فرسخاً، وهي جنوب هراة، واسم مدينتها زرنج، وبسجستان نخل كثير وتمر، وفي رجالهم عظم خلق وجلادة، ويمشون في الأسواق وبأيديهم سيوف مشهورة، ويلتفون بثلاث عمائم كل واحدة بلون ما بين أحمر وأصفر وأخضر وأبيض. ياقوت الحموي. معجم البلدان، ج٣، ص٢١٤ - ٢١٥.

(٣) قوهستان: وهو تعريب كوهستان، ومعناه موضع الجبال؛ لأن كوة هو الجبل بالفارسية. فتحها عبدالله بن كرز سنة ٢٩هـ. ياقوت الحموي. معجم البلدان، ج٤، ص٤٧٢.

وخراسان بلاد واسعة. أول حدودها مما يلي العراق وآخر حدودها مما يلي الهند وطخارستان^(١) وغزنة^(٢) وسجستان وكرمان^(٣)، وليس ذلك منها إنما هو أطراف حدودها. ومن أكبر مدن خراسان وأعظمها نيسابور^(٤)، ومرو^(٥)، وهراة^(٦)، وبلخ^(٧)؛ ويقسم الجغرافيون خراسان إلى أربعة أقسام هي: الربع الأول: نيسابور؛ ويشمل قسمها الغربي وأكبر مدينة فيها هي نيسابور، وهي أبو شهر، ونيسابور لها حدود واسعة.

- (١) طخارستان: ولاية واسعة كبيرة تشتمل على عدة بلاد، وهي من نواحي خراسان، وأكبر مدنها: طالقان. ياقوت الحموي. معجم البلدان، ج٤، ص٢٦.
- (٢) غزنة: هي مدينة عظيمة، وولاية واسعة في طرف خراسان، وهي الحد بين خراسان والهند في طريق فيه خيرات واسعة، إلا أن البرد فيها شديد جداً. ياقوت الحموي. معجم البلدان، ج٤، ص٢٢٨.
- (٣) كرماني: هي ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس وكرمان وسجستان وخراسان. ياقوت الحموي. معجم البلدان، ج٤، ص٥١٥.
- (٤) نيسابور: هي مدينة عظيمة ذات فضائل جسيمة، معدن الفضلاء، ومنبع العلماء. فتحها المسلمون أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه، سنة ٣١هـ. ياقوت الحموي. معجم البلدان، ج٥، ص٣٢٨.
- (٥) مرو: مرو الشاهجان، وهي مرو العظمى، أشهر مدن خراسان وقصبتها، وبين مرو ونيسابور سبعون فرسخاً، ومعنى مرو بالعربية "الحجارة البيض التي يُقْتَدَح بها". ياقوت الحموي. معجم البلدان، ج٥، ص١٣٢.
- (٦) هراة: مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مدن خراسان، فيها بساتين كثيرة ومياه غزيرة، وخيرات كثيرة محشوة بالعلماء، ومملوءة بأهل الفضل والثراء. أخربها التتار سنة ٦١٨هـ. ياقوت الحموي. معجم البلدان، ج٥، ص٤٥٦.
- (٧) بلخ: مدينة مشهورة بخراسان، وهي من أجمل مدن خراسان، وأكثرها ذكراً وخيراً، وأوسعها غلة. تُحْمَل غلتها إلى جميع خراسان وخوارزم. ياقوت الحموي. معجم البلدان، ج١، ص٥٦٨.

الربع الثاني من خراسان هو القسم الشمالي منها وحاضرتة مرو، وهي قديمة البناء وتقع على نهر المرغاب الذي ينحدر من جبال ألقور في شمال شرق هراة، ولمرو قرى ومدن كثيرة.

الربع الثالث من خراسان هو القسم الجنوبي منها وعاصمته مدينة هراة، وهي على النهر المسمى باسمها، والذي ينبع من جبال القور ويجري من الشرق إلى الغرب ماراً بمدينة هراة، وأكبر مدينتين بهراة بعد هراة هما: كروخ، وأوفه.

ورابع أرباع خراسان هو القسم الشرقي منها، وأعظم مدينة فيه هي بلخ^(١).

ثانياً: الفتح الإسلامي لخراسان:

استمراراً للمد الإسلامي الذي انتشر شرقاً، فقد فتحت خراسان في عهد الخليفة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - على يد الأحنف بن قيس التميمي، وذلك سنة (١٨) هجرية، وفي قول آخر سنة (٢١) هجرية^(٢)، بعد معركة نهاوند.

ومن المعروف تاريخياً أن القوى العظمى التي اصطدم بها المسلمون في بداية الفتوحات الكبرى في الجبهة الشرقية، إن جاز لنا القول، هي الإمبراطورية الفارسية، وقد خاض المسلمون معارك فاصلة في أثناء صراعهم مع الفرس، كانت آخرها معركة (نهاوند) في سنة (٢١) هجرية، والتي كانت معركة حاسمة انتصر فيها المسلمون نصراً مؤزراً على الفرس، حتى أنهم أطلقوا على هذه المعركة اسم (فتح الفتوح)؛ حيث إنها فتحت لهم الطريق إلى بلاد خراسان، وإلى بلاد ما وراء النهر بعد ذلك^(٣).

(١) ياقوت. معجم البلدان، ج٢، ص٤٠١.

(٢) البلاذري. الفتوح، ص٣٩٧.

(٣) البلاذري. الفتوح، ص٣٠٠-٣٠٢، الطبري. تاريخ، ج٥، ص٣-١٥.

لم يستقر الفتح الإسلامي في البداية في خراسان نظراً لكثرة نكوص أهل هذا الإقليم وتمردهم، فبعد الفتح التمهيدي في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وبعد وفاته رضي الله عنه، نقض أهل خراسان وغدروا، ثم أعيد فتحها في عهد الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان - رضي الله عنه - على يد عبدالله بن عامر بن كريز القرشي، بمعاونة الأحنف بن قيس سنة (٣١) هجرية^(١). ولما استقر الحكم الإسلامي لمعاوية بن أبي سفيان أسند ولاية البصرة لعبدالله بن عامر وجعله مسؤولاً عن إدارة خراسان فاستعمل عليها قيس بن الهيثم السلمي^(٢)، ثم أعفى معاوية بن عامر عن إمارة البصرة، ووكل شوؤن خراسان إلى عبدالله بن أبي شيخ ثم إلى طفيل بن عوف^(٣). وفي سنة (٤٥) هجرية، عين معاوية على البصرة زياد بن أبي سفيان^(٤)، واستعان زياد بأصحاب النبي ﷺ، فعين الحكم بن عمرو الغفاري على خراسان^(٥). وفي سنة ٥٤ هـ ولى معاوية بن أبي سفيان عبداً لله بن زياد على خراسان، وعمره خمس وعشرون سنة^(٦). وفي عام (٥٦) هجرية ولى معاوية بن أبي سفيان خراسان لسعيد بن عثمان

(١) البلاذري. الفتوح، ص ٣٩٤، الطبري. تاريخ، ج ٥، ص ١٢٣.

(٢) الطبري. تاريخ، ج ٦، ص ٧٨.

(٣) الطبري. تاريخ، ج ٦، ص ١٠٢.

(٤) زياد بن أبيه: وهو ابن سمية الذي صار يقال له ابن أبي سفيان. كان من الدهاة الخطباء الفصحاء، وكان يضرب به المثل في حسن السياسة، ووفر العقل، وحسن الضبط. توفي سنة ٥٣ هـ، وهو أمير البصريتين، الكوفة والبصرة. ابن حجر. الإصابة، ص ٤٣٨.

(٥) الطبري. تاريخ، ج ٦، ص ١٠٤ - ١٠٨.

(٦) الطبري. تاريخ، ج ٦، ص ١٤٩.

ابن عفان بعد أن عزل عبيد الله بن زياد^(١)، والتقى سعيد بن عثمان بن عفان بجيوش أهل (الصفد)، إلا أنه لم يحدث قتال، وتم الصلح بينه وبين (خاتون)^(٢). وفي سنة ٥٩هـ ولى معاوية بن أبي سفيان عبدالرحمن بن زياد بن أبيه خراسان^(٣).

وفي عهد يزيد بن معاوية تولى خراسان، سلم بن زياد سنة (٦١) هجرية^(٤)، فغزا خوارزم، ونقضت (خاتون) العهد واستتجدت بجيرانها من الصفد والأتراك، إلا أنه تمكن من هزيمتهم واستعاد فتح مدينة بخارى، وكان من قواده المشهورين في هذه المعارك المهلب بن أبي صفرة^(٥).

واضطربت أحوال خراسان بعد وفاة يزيد بن معاوية بن أبي سفيان سنة (٦٤)

(١) وكان سبب تولي سعيد بن عثمان خراسان، إنه قدم على معاوية وسأله أن يستعمله على خراسان، فقال له معاوية: إن بها عبيد الله بن زياد، فقال: أما لقد اصطنعك أبي ورفاك حتى بلغت باصطناعه المدى الذي لا يُجارى إليه ولا يُسامى، فما شكرت بلاءه، ولا جازيت بآلائه، فولاه حرب خراسان. الطبري . تاريخ، ج٦، ص١٥٥.

(٢) خليفة بن خياط العصفري . تاريخ خليفة بن خياط؛ تحقيق سهيل زكار - بيروت : دار الفكر للطباعة والنشر، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، ص١٧٠، الطبري . تاريخ، ج٦، ص١٥٥.

(٣) الطبري . تاريخ، ج٦، ص١٠٦، (ويذكر أن سبب تولية عبدالرحمن بن زياد خراسان، أنه قدم إلى معاوية وقال له: يا أمير المؤمنين، أما لنا حق؟ فقال: بلى قال: فماذا توليني؟ قال: بالكوفة النعمان بن رشيد، وعبيد الله بن زياد على البصرة وخراسان، وعبد بن زياد على سجستان، ولست أرى عملاً يشبهك إلا أن أشركك في عمل أخيك عبيد الله، قال: أشركني، فولاه خراسان.

(٤) وكان سبب تولية سلم بن زياد أنه قدم على يزيد بن معاوية وهو ابن أربع وعشرين سنة، فقال له يزيد: يا أبا حرب، أوليك عمل أخوك عبدالرحمن وعبداد؟ فقال: ما أحب أمير المؤمنين، فولاه خراسان وسجستان. الطبري . تاريخ، ج٦، ص٢٥٨.

(٥) الطبري . تاريخ، ج٦، ص٢٥٨.

هجرية^(١)، ونشب الصراع بين القبائل العربية، فأخرج المسلمون سلم بن زياد من خراسان^(٢)، وعندما تمكن عبد الملك بن مروان من الانتصار على عبدالله بن الزبير سنة (٧٣هـ)، كتب عبد الملك بن مروان إلى عبدالله بن حازم يدعوهُ إلى بيعته على أن يوليه خراسان سبع سنين^(٣)، ثم تولى خراسان بكر بن وشاح بعد أن قتل ابن حازم سنة (٧٣هـ) بأمر من عبد الملك بن مروان^(٤).

وفي سنة (٧٤هـ) عزل عبد الملك بن مروان بكر بن وشاح عن خراسان وولاهَا أمية بن عبدالله بن خالد بن أسيد^(٥).

وفي سنة (٧٨هـ) عزل عبد الملك بن مروان أمية بن عبدالله عن خراسان، وضمها إلى الحجاج بن يوسف الثقفي، الذي بعث المهلب بن أبي صفرة والياً على خراسان^(٦).

وفي سنة (٨٢هـ) توفي المهلب بن أبي صفرة والي خراسان، وتولى من بعده ابنه يزيد بن المهلب^(٧). وفي عهد الوليد بن عبد الملك، كان الحجاج بن يوسف الثقفي والياً على العراق أيضاً فولى قتيبة بن مسلم الباهلي على خراسان، وكان تولية قتيبة عام (٨٦هـ)^(٨). وبالرغم من أن خراسان كانت القاعدة المتقدمة لفتح بلاد ما وراء

(١) ناجي حسن. القبائل العربية في المشرق خلال العصر الأموي - ط ١ - اتحاد المؤرخين العرب، ١٩٨٠م / ١٤٠٠هـ، ص ١٧٩.

(٢) الطبري. تاريخ، ج ٧، ص ٣٠.

(٣) خليفة خياط. تاريخ، ص ٢٢٨؛ الطبري. تاريخ، ج ٧، ص ١٨٧ - ١٨٨.

(٤) خليفة خياط. تاريخ، ص ٢٢٨؛ الطبري. تاريخ، ج ٧، ص ٢٠٠.

(٥) خليفة خياط. تاريخ، ص ٢٢٨؛ الطبري. تاريخ، ج ٧، ص ٢٠٠.

(٦) خليفة خياط. تاريخ، ص ٢٢٨؛ الطبري. تاريخ، ج ٧، ص ٢٧٥.

(٧) خليفة خياط. تاريخ، ص ٢٢٨؛ الطبري. تاريخ، ج ٧، ص ٢٩٧.

(٨) خليفة خياط. تاريخ، ص ٢٢٨؛ الطبري. تاريخ، ج ٨، ص ٩ - ١٠.

النهر؛ إلا أنها كانت تتأثر بالاضطرابات التي تحدث في هذه الأقاليم، والتي لم تخضع خضوعاً تاماً للمسلمين على كثرة ما غزوها وعقدوا المعاهدات مع أهلها.

ثالثاً: الوضع السياسي والاجتماعي والاقتصادي في خراسان:

إن التطورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي حدثت في نظام الحكم الأموي كانت حسيطة تحولات كثيرة ومتنوعة في البنية الأساسية للمجتمع الإسلامي ونظام الحكم، والتي أحدثت بطبيعتها تغيرات كثيرة في العلاقات الاجتماعية بصورة خاصة بين العرب والبلاد المفتوحة.

لذلك كان لابد للعرب من أن يكونوا نظاماً جديداً يتلاءم مع إدارة الشعوب والدول التي فتحوها^(١).

لكن النظام الذي كوَّنه العرب لم يكن متكاملأ بحيث يتمكن من احتضان الشعوب التي دخلت في الإسلام شرقاً وغرباً، وبالذات في خراسان؛ فترى الثورات التي قامت في خراسان ضد الدولة الأموية كثيرة من مجتمع غير مستقر وغير متجانس من الناحية القومية والتاريخية^(٢).

وقد عاشت في بلاد خراسان وبلاد ما وراء النهر قبائل فرضت عليها طبيعة الإقليم الارتحال للرعي والبحث عن الكلاً، وتعود أكثر هذه القبائل إلى الأصل التركي^(٣).

وقد كانت هذه القبائل تدين بالوثنية والمجوسية التي هي ديانة فارس القديمة

(١) عبدالله مهدي الخطيب . الحكم الأموي في خراسان -٠ بيروت : مؤسسة الأعلى؛ بغداد :

دار التربية، ١٣٩٥هـ، ص ١٠.

(٢) الخطيب. الحكم الأموي في خراسان، ص ١١.

(٣) محمود شاكر. خراسان -٠ ط٤ -٠ بيروت : المكتب الإسلامي، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص ١٤.

إلى أن جاء الفتح الإسلامي في عهد الخلفاء الراشدين بداية من عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، واستمرار الفتوحات الإسلامية خلال العهد الأموي؛ فدخل سكان هذه الأقاليم في الدين الإسلامي تدريجياً^(١).

كان الوضع السياسي في خراسان مضطرباً بسبب الصراعات السياسية التي كانت تحدث في مقر الخلافة.

ومن الغريب أن انعكاس هذه الصراعات على إقليم خراسان كان واضحاً أكثر من أي إقليم آخر، ويبدو أن اختيار الولاة، والذي كان يخضع بدوره لتوازنات واتجاهات الحكم في مقر الخلافة، له دور في التقلبات السياسية التي شهدتها إقليم خراسان، هذا بالإضافة إلى الصراع السياسي الذي كان يدور داخل خراسان نفسها، والذي كان في البداية بين المسلمين وحكام الإقليم الأصليين، ثم أصبح في فترة لاحقة بين المسلمين أنفسهم، كما يظهر ذلك من صراع القبائل اليمنية والقيسية، ثم ظهر الصراع السياسي بين المتشيعين لآل البيت وبنو أمية في أواخر فترة حكمهم؛ وبالجملة يمكن القول إن الوضع السياسي في خراسان كان يتأثر بشكل مباشر بأي صراع سياسي يتم في مقر الخلافة، بين أهل الحكم أنفسهم من بني أمية، أو بينهم وبين منائئهم.

ومن الناحية الاقتصادية فيعتبر خراج خراسان من أهم مصادر الدخل للدولة الإسلامية، وقد اهتم الخلفاء بموضوع الخراج، بل كان ذلك سبباً مباشراً في أحيان كثيرة إلى تولية الولاة أو عزلهم؛ فعندما كان زياد بن أبي سفيان والياً على العراق، كتب إلى عامله في خراسان، وكان وقتها الحكم بن عمرو الغفاري "أما بعد فإن أمير المؤمنين كتب إليّ أن أصطفي له الصفراء والبيضاء، فلا تقسم في الناس ذهباً ولا

(١) محمود شاكر. خراسان، ص ١٤٠.

فضة"، ولما رفض الحكم إطاعة أمر الوالي وقسم الأموال على الأهالي والسكان المحليين، قام زياد بعزله^(١).

كانت المصادر الاقتصادية في زمن الحرب والفتوحات تتركز على الغنائم والجزية وخراج الأرض؛ لكن بعد استقرار الأمور في خراسان، وهجرة الكثير من القبائل العربية واستيطانها في خراسان وبلاد ما وراء النهر، وتملكهم للأراضي الزراعية، والإقطاعات الكبيرة؛ برزت مشكلات كثيرة في العلاقات الاقتصادية لم يألفها العرب من قبل، كعلاقة الفلاحين بالدهاقين، والعلاقات الإنتاجية العامة التي خلفها النظام الساساني القديم، والضرائب المتعلقة بالأراضي الزراعية، وملكيته، ثم التنظيمات الإدارية التي تطورت مع الدولة الساسانية، واهتمام العرب بها بعد فترة استقرارهم في هذه البلاد^(٢).

وقد حاول الأمويون إصلاح ما يستطيعون إصلاحه، وذلك باستخدام القوة، كما حدث في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي، الذي ترتب عليه هروب وهجرة الفلاحين من الريف إلى القرى والمدن الكبرى^(٣).

لقد كانت هناك قسوة أحياناً في جمع الضرائب، خاصة في العهد الأموي؛ حيث كانت موارد الدولة تعتمد على الجزية والخراج، وضرائب أخرى كانت ممقوتة من قبل أهالي خراسان مثل: ضريبة المهرجان والنوروز، وقد أسقط عمر بن عبدالعزيز ضريبة الجزية عن كل فرد دخل الإسلام، وجعل الأرض المصدر الرئيس في مالية الدولة^(٤).

(١) الطبري . تاريخ، ج٦، ص١٢٣، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي . سير أعلام

النبلاء؛ تحقيق شعيب الأرنؤوط - ط٢٠٠٢ - بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٢هـ، ج٢، ص٤٧٥.

(٢) الخطيب . الحكم الأموي في خراسان، ص١٤.

(٣) المرجع نفسه ، ص١٣.

(٤) المرجع نفسه ، ص١١٥.

واعتُبر أن الخراج هو ضريبة الأرض، ثم حُدِّد الخراج بأنه إيجار الأرض، وهو حق الأمة كلها، ويمكن القول أن أراضي ما وراء النهر كانت مصدر شقاق وحروب في سبيل حيازتها؛ لأنها كانت بلاداً غنية^(١)؛ ولعل عدم الاستقرار السياسي والاجتماعي والاقتصادي في خراسان هو الذي أكسب هذا الإقليم السمة الغالبة عليه في التاريخ، بأنه كان من أكثر أقاليم الإسلام اضطراباً في الحقب الأولى للإسلام.

طرق اختيار الولاية لخراسان في العصر الأموي:

لاشك بأن عملية اختيار الوالي في أي زمان ومكان تخضع لأسلوب الحاكم في الحكم ولتوجهاته وأهدافه السياسية.

ومن صدر الإسلام، وعند بزوغ فجره لم يكن للعرب سابق عهد بإدارة مقاطعات شاسعة تتبع لحكم مركزي؛ وفي عهد الرسول ﷺ، كان عماله على الأقاليم المفتوحة حديثاً يتسمون في العادة بالمعرفة بأصول وقواعد الدين الجديد، فكان ﷺ يرسلهم ليعلموا الناس الدين.

وبعد الفتوحات الكبرى كان الخليفة يدير الأمور من عاصمة الخلافة، أما البلدان والأقاليم القريبة والبعيدة، فكان يحكمها الأمراء والولاة^(٢).

إن الفلسفة العامة لاختيار الولاية في الإسلام كانت تصب على قواعد الولاء والقوة والأمانة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾^(٣).

وعجز الوالي عن الوفاء بهذه المتطلبات، كان عادة ما يؤدي إلى عزله وتولية

(١) المرجع نفسه ، ص ١٠٩.

(٢) نجدة خماش. الإدارة في العصر الأموي - دمشق : دار الفكر، ١٤٠٠هـ، ص ٢٩١.

(٣) سورة القصص ، الآية : ٢٦.

غيره، لذلك كثرت في الدولة الإسلامية عادة تغيير الولاة وعزلهم، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يشكو إلى الله (جلد الفاجر وعجز الثقة)^(١).

كان أكثر الأمراء في العصر الأموي يجمعون بين الصلاة والخراج جرياً على مبدأ اللامركزية في الحكم.

وقد أطلق الماوردي على هذا النوع من الإمارة: "إمارة استكفاء"، فيكون فيها الأمير مسؤولاً عن تدبير الجيوش وترتيبهم وتقدير أرزاقهم، والنظر في الأحكام، وتقليد القضاة والحكام، وجباية الأموال، والخراج، وقبض الصدقات، وتقليد العمال فيهما، وتفريق ما استحق منها، وحماية الدين، ومراعاته من تغيير أو تبديل، وإقامة الحدود في حق الله، وحقوق الأشخاص، والإمامة في الجمع والجماعات، يؤم ويستخلف عليها وتسيير الحجيج من عمله، وإذا كان الإقليم ثغراً متاخماً للعدو كان على الأمير واجب آخر هو جهاد من يليه من الأعداء، وقسم غنائمهم في المقاتلة، وأخذ خمسها لأهل الخمس^(٢).

كان خلفاء بني أمية يولون عناية خاصة لاختيار ولاتهم على الأقاليم، ويبدو أن الخلفية التي استولى بها بنو أمية على مقاليد الخلافة الإسلامية كانت سبباً وجيهاً لهذه العناية الفائقة في اختيار الولاة، ذلك أنهم، أي بني أمية، أخذوا الحكم عنوة، وبعد قتال شرس ضد مناوئهم في العراق والحجاز، ثم أنهم جاءوا بعد فترة حكم الخلفاء الراشدين المشهود لهم بالصلاح والاستقامة، وفي فترة أنكر عليهم كثير من المسلمين تحويل الخلافة إلى ملك عضود يتوارثه الأبناء بعد الآباء.

(١) الطبري . تاريخ، ج ٢، ص ١٨٦.

(٢) علي بن محمد الماوردي. الأحكام السلطانية: خرج أحاديثه خالد عبداللطيف العلمي - ط ٢٠٠٢ - بيروت : دار الكتاب العربي، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، ص ٧٢.

بعد أن كانت خلافة راشدة يتولى فيها الحكم أصلح وأعدل الناس وبرضاء عامة المسلمين، اعتمد بنو أمية كثيراً في بداية حكمهم على عنصر الولاء لهم ولدولتهم في تولية الأمراء والولاة والعمال، وهكذا نرى معاوية بن أبي سفيان يولي عَمَرَ بن العاص مصر، ويولي المغيرة بن شعبة على الكوفة، وهما من أكثر الولاة كفاءة وولاءً لبني أمية، كما اعتمدوا أيضاً على صلة القرابة باعتبارها أوثق الصلات، وأكبر في ضمان الولاء، وفي ذلك ولى عبدالمك بن مروان أخاه عبدالعزيز بن مروان على مصر، ثم عين ابنه عبدالله بعد وفاة عبدالعزيز، كما ولى أخاه بشراً على الكوفة، وأخاه محمد بن مروان على الموصل وأرمينية وأذربيجان، وأيضاً ولى ابنه سليمان بن عبدالمك على فلسطين، كما ولى هشام بن عبدالمك ابنه سعيداً على حمص، ليس ذلك فحسب، بل إن بني أمية سمحوا لولاتهم الموالين لهم بتولية أقربائهم أيضاً، مثل: ما فعل الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق الذي ولى أخاه محمد بن يوسف على اليمن، وابن عمه الحكم بن أيوب على البصرة، ومحمد بن القاسم الثقفي على فارس، ثم السند، ومثل ما خلف أبناء المهلب بن أبي صفرة والدهم على خراسان،

وثمة عنصر آخر من عناصر اختيار الولاة في الدولة الأموية، وهو عنصر القبلية؛ وكان لقبيلة في عصر بني أمية شأن مرموق؛ فقد اعتمدوا في كثير من فتوحاتهم على القبائل اليمنية والقيسية، وكان اختيار الوالي يخضع أحياناً وبسبب ظروف سياسية معينة إلى خلفية قبلية، بل إن بعض خلفاء بني أمية كان يميل إلى تفضيل قبيلة على أخرى، حتى من بين هذه القبائل المناصرة لهم؛ فقد كان عبدالمك ابن مروان مثلاً يوازن بين القبائل، ومثال ذلك عندما شملت الفوضى أغلب القبائل التي استوطنت خراسان، وخشي الناس فساد البلاد، وطمع أعدائهم فيهم، أرسلوا

إلى عبد الملك بن مروان في أن يختار لهم والياً ذا ثقة وأمانة، فولى عليهم أمية بن عبدالله بن خالد بن أسيد بن أبي العاص سنة ٧٤هـ^(١).

وقد أحسن عبد الملك الاختيار، حيث اختار والياً محايداً لتلك القبائل القاطنة بخراسان، بسبب أن أمية من قريش، وليس هناك من يحسده أو يتعصب عليه^(٢).

أما يزيد بن عبد الملك فكان يُعلي من شأن القبائل القيسية، وعلى عكس من ذلك كان هشام بن عبد الملك يقرّب القبائل اليمنية^(٣)، إلا أن عمر بن عبد العزيز انفرد عن باقي خلفاء بني أمية في تولية الأ صلح والأ تقي والأ قدر؛ وأحياناً يتم اختيار الوالي لصلاحه، أو لشهرته بين الناس، مثال على ذلك اختيار زياد بن أبي سفيان للحكم بن عمرو الغفاري، والياً على خراسان، لما عرف عن الحكم من الصلاح والتقوى وصحبة الرسول ﷺ، وتذكر المصادر التاريخية حادثة طريفة لاختياره وهي: أن زياداً نادى على حاجبه بأن يدعو له الحكم يريد بذلك الحكم بن العاص، إلا أن الحاجب أدخل الحكم بن عمرو الغفاري فولاه زياد خراسان، وهذه الحادثة لا تدل على الاعتبار في اختيار الولاة، إنما تؤكد بعد نظر زياد بن أبي سفيان ومعرفته بالناس، فلولا أنه أراد الحكم بن عمرو لما ولاه إمارة خراسان ذات الأهمية للحكم الأموي^(٤).

كانت خراسان من أهم المقاطعات الشرقية في عهد بني أمية، وكان ولايتها يتولون الفتوحات في منطقة ما وراء النهر ومنطقة طخارستان^(٥). وقد حرص خلفاء

(١) الطبري . تاريخ، ج٧، ص٢٠٠، ناجي حسن. القبائل العربية في المشرق، ص١٨٧.

(٢) الطبري . تاريخ، ج٧، ص٢٠١، ناجي حسن. القبائل العربية في المشرق، ص١٨٧.

(٣) خماش. الإدارة في العصر الأموي، ص٢٩٧.

(٤) الطبري . تاريخ، ج٦، ص١٠٩.

(٥) خماش. الإدارة في العصر الأموي، ص٦٩.

بني أمية على تعيين الولاة المخلصين لهم ذوي الطاعة والولاء في هذا الإقليم حتى يضمنوا السيطرة على هذا الجزء المهم من الدولة الإسلامية .. فيا ترى ما الأسس الكامنة وراء اختيار بني أمية لولااتهم في هذا الإقليم بالذات؟! وما الأساليب التي اتبعوها لتعيينهم؟! وما السمات التي يجب توافرها في الوالي لكي تقوى حظوظه في ولاية خراسان؟! باستعراض الإجابة على هذه التساؤلات سوف يتبين لنا مميزات كثيرة كانت ذات علاقة باختيار الولاة في هذا الإقليم المضطرب؛ إلا أنه يجب التنويه إلى أن الظروف السياسية قد تكون أحياناً أحد العوامل المهمة في عزل أو تولية والٍ من الولاة دون اعتبار للقدرات والمميزات الشخصية للوالي، هذه الظروف السياسية المتغيرة قد تكون مرتبطة بالإقليم المراد اختيار الوالي له، وهنا نعني بها خراسان؛ أو قد تكون مرتبطة بمركز الخلافة والصراع الدائر هناك بين رغبات الخلفاء وبين رغبات المواليين لهم، أو بين سياسة خليفة سابق وآخر وريث للخلافة يريد تغيير ما كان سلفه قد اخطته.

اتصف بعض ولاة بني أمية على خراسان بقدرات عقلية وإدارية فذة، وهذه تمثلت بداية في عبدالله بن عامر، عندما أسند إليه معاوية ولاية البصرة، وإدارة خراسان سنة (٤١هـ)^(١). وكان عبدالله بن عامر والياً على البصرة في عهد عثمان ابن عفان سنة (٢٩هـ)، وقد استعمل عبدالله بن عامر على خراسان قيس بن الهيثم السلمي ثم عزله وعين حازم بن طبيان سنة (٤٣هـ)^(٢).

ومن الذين اتصفوا أيضاً بالقدرات العقلية، سلم بن زياد الذي عينه يزيد بن معاوية بن أبي سفيان والياً على خراسان سنة (٦١هـ)؛ حيث استمرت ولايته على

(١) الطبري . تاريخ، ج٦، ص ٧٨.

(٢) الطبري . تاريخ، ج٦، ص ١٠١.

خراسان مدة خمس سنوات، أحسن فيها السيرة وعدل بين الناس وغزا عدة غزوات في بلاد ما وراء النهر، وتذكر بعض المصادر التاريخية قولاً في سلم بن زياد: (لم يحب أهل خراسان أميراً قط حبهم لسلم بن زياد، فسمي في تلك السنتين اللتين كان فيهما سلم، أكثر من عشرين ألف مولود بسلم، من حبهم سلماً) ^(١).

من الصفات الشخصية الأخرى التي كانت دافعاً لاختيار والي القدرات العسكرية، وهذه الصفة كانت مطلوبة في خراسان لظروف الإقليم، كونه يُعد ثغراً من ثغور الدولة الإسلامية؛ ولم تستقر الفتوحات فيه إلا بعد مجاهدات كثيرة؛ حيث كثرت عمليات النكوص ونقض العهود والمواثيق، وكان الأمر يحتاج إلى فتح جديد في كل مرة، وكان الولاة في عهد بني أمية يتولون أمور الفتوحات بأنفسهم خاصة في بلاد ما وراء النهر ما عدا البعض منهم، لذا كان الخلفاء يحرصون على تولية خراسان ولاة لهم قدرات عسكرية مشهورة حتى يتمكنوا من توسيع رقعة الدولة وبالتالي الحصول على مزيد من الخراج والغنائم والجزية، وبالطبع، فإن غالبية هذه الأموال كانت ترسل إلى الخلفاء في دمشق عن طريق والي العراق.

ومن الولاة الذين اتصفوا بالقدرات العسكرية المعتبرة المهلب بن أبي صفرة، والي خراسان من قبل الحجاج بن يوسف الثقفي سنة (٧٨هـ) ^(٢)، وقد تميز المهلب بكفاءة حربية فائقة وبخبرة واسعة في الحروب؛ حيث قضى معظم حياته في إدارة الجيوش الحربية، وقد كانت شخصية المهلب تغلب عليها الناحية العسكرية أكثر من الإدارية.

(١) الطبري، ج٧، ص٣٠. محمود شيت خطاب. سلم بن زياد، مجلة الجندي المسلم - الرياض: وزارة الدفاع والطيران، العدد السابع والثلاثون، رمضان، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص٢٩.
(٢) البلاذري. الفتوح، ص٤٠٧، الطبري. تاريخ، ج٧، ص٢٧٥.

ومن هؤلاء أيضاً القائد قتيبة بن مسلم الباهلي الذي تولى خراسان سنة (٨٦هـ)، من قبل الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق^(١)، ولم تكن قبيلة قتيبة (باهلة) ذات وزن كبير في خراسان، إلا أنه كان يتصف بالحكمة ورجاحة العقل والذكاء؛ وبالرغم من صغر سنه فقد تمكن من كسب ود جميع القبائل العربية في خراسان، وتمكن من توظيف هؤلاء في مد الفتوحات الإسلامية إلى بلاد ما وراء النهر، خلال عشر سنوات من مدة ولايته.

وقد نجح الحجاج بن يوسف في اختياره لقتيبة بن مسلم وذلك لرجاحة عقله مع صغر سنه، فقد تمكن من السيطرة على القبائل ذات النفوذ الكبير في خراسان، ولمدة عشر سنوات، وتقريب تلك القبائل من بعضها البعض، وإشغالها بالفتوحات الإسلامية في بلاد ما وراء النهر.

وكان اختيار الحجاج لقتيبة بسبب نفوذ قبيلة الأزد عن طريق المهالبة، وضعف قبيلة بني تميم، والقيسية في خراسان، فأراد الحجاج أن يُعين عليهم والياً ليس له علاقة بتلك القبائل المستوطنة في خراسان، فكان هذا التعيين أَرْضَى أغلب القبائل بعد أن صفا الجو السياسي الذي كان مشحوناً بالتحاسد والحقْد والثأر، ولم يقرب قبيلة دون الأخرى^(٢)، وكذلك نجح الحجاج في انتزاع خراسان من الأزد، قبيلة المهالبة، وإعادتها لسيطرة القيسية الذين هم أهلُه وعشيرته، حيث قام قتيبة بن مسلم بتقريب القيسية إلى جانبه دون القبائل الأخرى، حتى ارتفعت مكانتهم في زمانه أكثر مما كانت من قبل^(٣).

(١) الطبري . تاريخ، ج٨، ص ٩ - ١٠ .

(٢) الخطيب . الحكم الأموي في خراسان، ص ١٧ .

(٣) ناجي حسن . القبائل العربية في المشرق، ص ١٧٥ .

كانت دولة بني أمية من الدول الأولى في الإسلام، وكانت فترة توليهم الخلافة الإسلامية جاءت بعد عهد الخلفاء الراشدين؛ لذلك كانت العاطفة الدينية قوية في أيام حكمهم؛ حيث إن الدعوة كانت في عنفوانها مقارنة بالحقب اللاحقة من حكمهم، كما تميزت مدة حكمهم خاصة الفترة الأولى؛ بوجود كثير من الصحابة والتابعين الذين اشتركوا في الفتوحات؛ لهذا فإن حكام بني أمية لم يغفلوا الناحية الدينية في تولية ولاتهم، ولا يمكن إنكار حقبة الإصلاح والتجديد الديني التي ميزت عهد الخليفة عمر بن عبدالعزيز حتى لُقّب بالخليفة الراشد الخامس، بالرغم من أنه خليفة من خلفاء بني أمية.

وفيما يختص بتولية ولاة خراسان؛ فقد كان من ضمن ولاتهم من كان يتصف بالتقوى والدين وهو الحكم بن عمرو الغفاري، وما يروى عن تقواه ما روي عن أن عمر نظر إليه، وقد خضب بصفرة، فقال: هذا خضاب الإيمان^(١)، ومما يدل على تقواه القصة التي تعرضنا لها بشأن امتناعه عن إرسال الفيء إلى الخليفة الأموي ورده على كتاب زياد بن أبي سفيان والي العراق بشأن طلب أمير المؤمنين بأن يصطفي له البيضاء والصفراء (بأنّي وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين)^(٢).

ولا يغيب عن البال أن الصفات الشخصية المتفردة مطلوبة للقيادة ولأداء المهمات، لكن ما يمكن قوله بطبيعة الحال أن الإنسان إنما هو مجموعة من الخصائص والصفات، وما تعرضنا له من صفات ولاة خراسان في العهد الأموي لا يمثل إلا الصفة الغالبة على الوالي، فصفة التدين لا تعني أن الوالي لا يحسن أمور الإدارة الأخرى، كما أن العبقورية العسكرية لا تعني أيضاً أن صاحبها يخلو من المواهب الأخرى.

(١) الطبري . تاريخ، ج٦، ص١٠٨.

(٢) الطبري . تاريخ، ج٦، ص١٢٣.

لذلك وجب التنويه إلى أن الصفات الشخصية الغالبة على الوالي قد تكون هي من أسباب اختياره للولاية، والملاحظ على سياسة اختيار ولاية بني أمية أنها تغلب عليها صفة الولاء والكفاءة واختيار الشخص المناسب للوضع المناسب، يظهر ذلك في عملية تولية ولاية العراق وخراسان.

فقد تولى العراق مثلاً زياد بن أبي سفيان، والحجاج بن يوسف الثقفي، وقد لا يوجد في أثناء مدة الدولة الأموية من هو أشد ولاءً وشدة من هؤلاء.

ثانياً: الأحوال السياسية:

ولذلك يمكن القول إن الوضع السياسي في الإقليم يفرض أحياناً تولية نوع معين من الولاة، ولا يمكن أن يعزى ذلك الاختيار إلى شخصية الوالي وصفاته فقط؛ بل يضاف إلى ذلك عامل الوضع الداخلي في الإقليم، والأوضاع الداخلية في إقليمي العراق وخراسان، كانت تموج بمختلف التناقضات والصراعات في العهد الأموي كما هو معروف.

ولا يمكن إغفال الصراعات القبلية أيضاً في العهد الأموي، فسيطرة القبائل على الأقاليم المفتوحة كانت معروفة؛ لأن الجيوش الإسلامية في بداية عهد الفتوح كانت تعتمد ضمن ما تعتمد عليه على هجرة القبائل واشتراكها في الفتح، ثم الاستيطان والاستقرار، وتملك الأراضي بعد ذلك؛ فبعد أن اعتمد البيت الأموي في تحقيق النصر على مساعدة القبائل اليمنية، اعتمد عبد الملك بن مروان على سياسة التوازن بين القبائل اليمنية والقيسية، وحين آلت الخلافة إلى يزيد بن عبد الملك عادت العصبية؛ لتطل برأسها من جديد؛ وقد ازداد نفوذ القيسيين تدريجياً حتى وصل درجة عالية على يد الحجاج بن يوسف^(١)، وكان من نتيجة ذلك في خراسان

(١) خماش. الإدارة في العصر الأموي، ص ٢٩٧.

القضاء على المهالبة، وهم من الأزد، وتعيين عمر بن هبيرة على العراق وخراسان، وعمر بن هبيرة قيسي متعصب لقيسيته، وقد أثارت توليته حفيظة الكثيرين؛ لأنه لم يأل جهداً في الإساءة إلى قبائل الأزد واليمن بوجه عام، ولا سيما من كان يقطن منهم خراسان^(١).

وعندما تولى عمر بن عبدالعزيز الخلافة غير السياسة في كيفية تعيين الولاة في خراسان وغيرها، حيث اتبع سياسة التوازن بين القبائل في اختياره للولاة، فعزل يزيد بن المهلب عن خراسان، وعين بدلاً منه الجراح بن عبدالله الحكم^(٢).

ونظراً لمقت الخليفة عمر بن عبدالعزيز إلى العصبية القبلية التي سادت في خراسان، فنجد أنه قام بعزل حاكمها الجراح بن عبدالله بعد أن تولى حوالي سنة وخمسة أشهر، وعين عبدالرحمن بن نعيم الغامدي على حرب خراسان، وعبدالرحمن بن عبدالله القشيري خراجها، ومما يذكر في سبب عزل الجراح بن عبدالله، أن عمر بن عبدالعزيز بلغه عن الجراح عصبية، وأن الجراح كتب إلى عمر ابن عبدالعزيز أن أهل خراسان لا يصلح لهم إلا السيف، فأنكر عليه ذلك وعزله^(٣)؛ وقيل أيضاً عن سبب عزله: إن الخليفة عمر بن عبدالعزيز كتب له قائلاً "انظر من صلى قبلك إلى القبلة، فضع عنه الجزية"^(٤). فسارع الناس إلى الدخول في الإسلام، فقليل للجراح: إن الناس قد سارعوا إلى الإسلام، وإنما ذلك نفوراً من الجزية، فامتحنهم بالختان؛ فكتب إلى الخليفة عمر بن عبدالعزيز يخبره بذلك،

(١) الطبري . تاريخ، ج٦، ص ٥٦٥.

(٢) الطبري . تاريخ، ج٨، ص ٨٩ . الخطيب . الحكم الأموي في خراسان، ص ٩٤.

(٣) البلاذري . الفتوح، ص ٤١٥.

(٤) الطبري . تاريخ، ج٨، ص ٩٠.

فكتب إليه الخليفة عمر قائلًا له: إن الله بعث محمداً ﷺ داعياً، ولم يبعثه خاتناً، فلما لم يمثل لأمره عزله^(١).

وعندما ولي الخلافة هشام بن عبد الملك، أظهر ميلاً واضحاً لليمانية وجفوة للقيسية، الذين أساءوا السيرة في عهد أخيه؛ فكان أول ما فعله أن عزل عمر بن هبيرة، وعين بدلاً منه خالد بن عبدالله القسري^(٢).

نعود للقول بأن عوامل اختيار الولاة في خراسان في العهد الأموي متداخلة ومترابطة مع بعضها البعض، فالولاء والحزم والأمانة والقدرة العسكرية والإدارية والتوازنات القبلية والوضع الداخلي في الإقليم والميول الشخصية والقرباة، كلها يمكن أن تصنف من عوامل اختيار الوالي، وعكس ذلك فالخيانة والعصيان والفشل الإداري وإساءة استخدام السلطة وموالات البعض ومخالفة الأوامر يمكن أن تكون من عوامل عزل الوالي وتولية غيره.

الخلاصة:

هل يمكن القول : إن خلفاء بني أمية قد وفقوا في اختيار ولاتهم، خاصة في إقليم خراسان؟! إذا قارنا حقبة بني أمية بغيرها من حقبة التاريخ الإسلامي اللاحق، يمكن القول : إن قواعد اختيار الولاة في العهد الأموي، كانت تتركز بشكل أكبر على الصفات الشخصية، علماً بأن المميزات الشخصية للولاة تعرضت للتغيير هي أيضاً.

فقد تميز ولاة بني أمية مثلاً: بأنهم قادة عسكريون، وخطباء بلغاء، وأئمة كانوا يؤمنون الناس في الصلاة، حتى أن استلام الوالي الجديد لمنصبه كان يتم في

(١) الطبري . تاريخ، ج ٨، ص ١٣٩.

(٢) الطبري . تاريخ، ج ٨، ص ٩٠.

العادة في المسجد عن طريق الخطبة، كما فعل زياد بن أبيه، والحجاج بن يوسف الثقفي في العراق.

وقد كان من عادة الأمراء في العصر الأموي أن يفتتحوا ولايتهم بخطبة يلقونها من المسجد تلخص طريقتهم في السياسة، والإدارة، ومعاملة الرعية؛ ليكون الناس على بينة من أمرهم، وكان من فضائل العهد الأموي أن رجاله عرفوا بالفصاحة، فلما جاء العصر العباسي، وطلبوا للإمارة غير الفصاحة، انحط شأن الخطبة في الجامع، ثم تقلدها أئمة وخطباء مخصوصون وتركها الأمراء، بل تركوا الجلوس في الجامع جملة.

وكان خلفاء بني أمية يوصون ولايتهم عند التعيين بما يسمى بالعهد كتابة أو قولاً، فعندما عهد معاوية لعبيد الله بن زياد بولاية خراسان قال له: (إني قد عهدت إليك مثل عهدي إلى عمالي، ثم أوصيك وصية القرابة لخاصتك عندي، لا تبعن كثيراً بقليل، وخذ لنفسك من نفسك، وافتح بابك للناس تكن في العلم منهم أنت وهم سواء، وإذا عزمتم على أمر فأخرجهم للناس، ولا يكن لأحد فيه مطمع، ولا يرجعن عليك وأنت تستطيع)^(١٥).

وعندما ولى عبد الملك بن مروان الحجاج على العراق كتب إليه كتاباً بخطه (أما بعد يا حجاج، فقد وليتك العراقيين صدقة فإذا قدمته فطأه وطأة يتضاءل منها أهل البصرة وإياك وهويني الحجاز، فإن القائل هناك يقول ألفاً ولا يقطع بهن حرفاً)^(٢).

(١) الطبري . تاريخ، ج ٥، ص ٢٩٦.

(٢) أحمد بن يعقوب بن جعفر بن واضح، المعروف باليعقوبي. تاريخ اليعقوبي - بيروت : دار صادر، د - ت، ج ٣، ص ٢٧٢.

صفوة القول أن دولة بني أمية ورجالها من خلفاء وولاة وعمال كانوا لبنة من لبنات دولة الإسلام التي لم تمت منذ أن سطع نورها في المدينة المنورة، العاصمة الأولى للخلافة الإسلامية، وإن خبا نورها بين فترة وأخرى؛ لكن مازال الإسلام هو دين الأراضي التي فتحت منذ ذلك الحين وحتى يومنا الحاضر، ولكل زمان رجال... وقد كانت العوامل التي طالما حاول خلفاء بني أمية حسمها عن طريق اختيار الولاة المناسبين، هي نفسها العوامل التي قضت على دولتهم: كالفتن، والأهواء، والعصبية، والعصيان، والتمرد، والثورة... لكن لم يكن من بينها - لحسن الحظ - النكوص عن الإسلام ديناً وعقيدة، وشرعية للحياة والآخرة.

المصادر والمراجع

- ١ - معجم البلدان لشهاب الدين ياقوت الحموي ٠ - بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٣٩٩هـ.
- ٢ - المسالك والممالك لإبراهيم بن محمد الأصطخري؛ تحقيق محمد جابر عبدالعال، ومحمد شفيق غريال ٠ - القاهرة: مطابع دار القلم، ١٣٨١هـ.
- ٣ - تاريخ الطبري لمحمد بن جرير؛ تقديم صدقي جميل العطار ٠ - بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، ١٤١٨هـ.
- ٤ - فتوح البلدان. البلاذري، أحمد بن يحيى؛ تحقيق رضوان محمد رضوان ٠ - بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٢هـ.
- ٥ - خراسان لمحمود شاکر ٠ - بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٦هـ.
- ٦ - القبائل العربية. ناجي حسن.
- ٧ - تقسيمات خراسان الإدارية في العهود الإسلامية الأولى لصالح أحمد العلي ٠ - بغداد: مطبعة المعارف، ١٩٧١م.
- ٨ - الشعر العربي بخراسان في العصر الأموي للدكتور حسين عطوان ٠ - عمان: مكتبة المحتسب، بيروت: دار الجيل، ١٩٧٤م.
- ٩ - الإدارة في العصر الأموي لنجدة خماش ٠ - دمشق: دار الفكر، ١٤٠٠هـ.
- ١٠ - الحكم الأموي في خراسان لعبدالله مهدي الخطيب ٠ - بيروت: مؤسسة الأعلمي، بغداد: دار التربية، ١٣٩٥هـ.
- ١١ - آل المهلب بن أبي صفرة ودورهم في التاريخ حتى منتصف القرن الرابع الهجري للدكتور نافع توفيق العبود ٠ - بغداد: كلية الآداب، ١٩٧٩م.
- ١٢ - سير أعلام النبلاء. الذهبي، محمد بن أحمد؛ إشراف وتحقيق: الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠١هـ.
- ١٣ - الجندي المسلم، مجلة إسلامية عسكرية، العدد: ٣٧، رمضان ١٤٠٥هـ، قسم التوعية الإسلامية، القوات المسلحة السعودية (سلم بن زياد).